نظرة في أنماط الفكر الجغرافي

للدكتور عيسى موسى الشاعر

ملخص البحث :

يهتم هذا البحث بتبيان كيف خضع المنهج الجغرافي لكثير من المجادلات الداخلية التي كان نتيجتها ظهور مفاهيم جغرافية جديدة تتفق مع الاطار الحديث للمعرفة الانسانية . يبدأ البحث بعرض لمكانة علم الجغرافية بين العلوم ، ويتم توضيح كيف أنه العلم الوحيد الذي يحاول تكوين راي شامل عن الأرض والانسان من خلال ميزته المكانية . وبعد ذلك يتم عرض لنماذج من الفكر الجغرافي التقليدي وشرح التضاد بين الجغرافية الموضوعية والجغرافية الاقليمية من جهة وبين الثنائية التي تفرق بين العوامل البشرية والعوامل غير البشرية من جهة أخرى . وفي نهاية البحث يتبين كيف ان الجغرافيين قد خرجوا بنمط فكري جديد كان أهم أسسه بناء النظريات والأنظمة والنماذج والتحليل الكمي والوصول الى القوانين العامة . ولكن رغم ذلك تبقى الخلاصة بان الجغرافية بانظمتها المختلفة متكاملة يكمل بعضها البعض الآخر .

نظرة في انماط الفكر الجغرافي

خضع المنهج الجغرافي ولا يزال يخضع الى نوع من التعديل والتبديل . فافكار همبولت Humboldt وريتر Ritter وراتزل Ratzel وهيتنر Hittner وهارتشورن Hartshorne وغيرهم خضعت للكثير من التمحيص لدرجة أن بعضها رفض أحيانا . والواقع فان «التقليم»

في علم ما أمر مفيد لنموه · كما أن الحوار والنقاش الموضوعيين فيه يعتبران ظاهرة صحية تدل على قوته · ولكن يتحتم أن لا يصل الحوار الى درجة الافراط فتكون نتيجته الهدم لا البناء وتشتيت الشمل بدلا من جمعه · ان المحاورات الجغرافية حول المنهج الجغرافي لم تتوقف بعد · ومن المتوقع استمرارها في المستقبل · وسنعرض في الصفحات التالية العديد من وجهات النظر التي كانت نتيجة آخرها الخروج بالجغرافة من اطارها القديم وظهور مفاهيم جديدة يتفق عليها معظم الجغرافيين ويأملون لها الاستمرار ·

مكانة الجغرافية بين العلوم :

المعرفة الجغرافية قديمة قدم الانسانية نفسها · فالجهود المبكرة التي قام بها المفكرون الأوائل بقصد فهم الظاهرات البيئية المحلية المجاورة لهم والمحيطة بهم وفهم مركز الانسان ودوره بين هذه الظاهرات تعتبر المنشأ الأول للجغرافية (١) ومع مرور الزمن ظهر جغرافيون أغنوا الأدب الجغرافي بكتاباتهم ووضعوا الأسس العريضة لما عرف فيما بعد بعلم الجغرافية · ولقد تعرض علم الجغرافية أثناء تطوره الى مجالات داخلية أدت الى ظهور روح الانقسامية فيه · ومع ذلك يبقى الجميع متفقين على أن الجغرافية تختص بدراسة المكان · وهذه هي الميزة التي تجعل للجغرافية مجالا واضحا مميزا بين مجالات المعرفة المختلفة · والحقيقة فان المجال الكلي للمعرفة يمكن شرحه جيدا حسب ثلاثية المادة والزمن والمكان · وهذا ما أوضحه العديد من الجغرافيين · فهتنر مثلا يرى أن للحقيقة مدى ذا ثلاثة أبعاد يجب اختبارها من ثلاث وجهات نظر · فمن وجهة النظر الأولى نرى علاقة الأشياء المتشابهة ، ومن وجهة النظر الثانية نرى تطور الأشياء عبر التاريخ ، ومن الثالثة نرى ترتيب الأشياء وتقسيمها حسب المكان (٢) وهارتشورن أيضا يميز بين العلوم الموضوعية* (ذات المنهج العام) chorological والعلوم الزمنية chronological والعلوم المكانية chorological أما العلوم الموضوعية فتشمل العلوم الطبيعية مثل الأحياء والكيمياء والطبيعة ، في حين أن العلوم الاجتماعية تشمل علم الاجتماع وعلم الديموغرافيا وعلم الانثربولوجيا · أما العلوم الزمنية فتشمل علم الحفريات

(*) الكلمات موضوعية ومنهجية ونظامية واصولية مترادفات ، تعني Systematic بالانجليزية ، ونحن هنا نميل الى استخدام كلمة موضوعية ·

وعلم ما قبل التاريخ وعلم التاريخ . وأما العلوم المكانية فتشمل كل من علم الطبيعة الأرضية geophysics وعلم الجغرافية وعلم الفلك (٣) . ولمزيد من التوضيح يمكن القول بأن العلوم الموضوعية تهتم بالمادة بينما تهتم العلوم الزمنية (التاريخية) بتغير المادة عبر التاريخ وتهتم العلوم المكانية بالمادة عندما يكون عنصر المكان قرينة لها . ومهما يكن تفكيرنا بالمكان فاننا نقصد به ذلك الحيز الذي تتميز فيه الأجسام المادية بأبعاد معينة مهما صغرت أو كبرت هذه الأبعاد .

هنالك من قسم ميادين العلم المختلفة الى طبيعية وبيولوجية واجتماعية وانسانية . ويعتبر الشرنوبي ذلك مجرد تقسيم تقريبي . وهو يرى أن الجغرافيين يعتبرون علمهم علما اجتماعيا بالدرجة الأولى رغم الارتباط الوثيق بالعلوم الفيزيائية والعلوم الانسانية (٤) . وهنا يتساءل الشرنوبي « ما هو الشيء الذي يعطي الجغرافية الصفة المستقلة لها ؟ » ويضيف بأن الاجابة تنعكس من خلال فهمنا لاهتمامات الجغرافيين . أنه اهتمام لصفة المكان . أي أنه اهتمام بالسكان ومواطنهم ككل والعلاقات القائمة بين الأماكن المختلفة . أو هي المعرفة بتنوع الأماكن على سطح الأرض(٥)ويستطرد الشرنوبي فيقول « هناك شكوى بعيدة المدى فيما يختص بجدوى الجغرافية لفهم المكان . ولكن هناك سؤال يطرحه الجغرافي أمام الآخرين يقول : هل وجد خلال تاريخ البحث العلمي المتخصص أي مكان لأي نظام يحاول تكوين رأي شامل للأرض والانسان ؟ ان اجابتنا التي ربما تكون متحيزة تقول بأنه ربما كانت الجغرافية هي التي يمكن أن تجيب على هذا السؤال دون غيرها من الفروع الأخرى للعلوم » (٦) .

لقد مر علم الجغرافية في مراحل مختلفة أثناء نموه . وفي تلك المراحل تم استخدام العديد من التعابير والاصطلاحات للدلالة على المجال الجغرافي والمنهج العام له أو لنقل تعريفه . فعلى سبيل الأمثلة وليس الحصر نشأت عبر الأزمان المعاني التالية : الجغرافية كعلم سطح الأرض والجغرافية كعلم أرضي والجغرافية كدراسة للمنظر الطبيعي للأرض والجغرافية كعلم فيزيائي طبيعي والجغرافية كدراسة للعلاقات بين الطبيعة والانسان والجغرافية كايكولوجيا بشرية والجغرافية كدراسة للتوزيع والجغرافية كعلم يعني بدراسة الاختلافات المكانية لسطح الأرض والجغرافية كنظرية الحيز الأرضي أو الموقع .

وبعد تمحيص دقيق لعمل من سبقه من الجغرافيين قرر هارتشورن أن الجغرافية معنية بتزويد ووصف وشرح دقيق ومنظم ومعقول للطراز المتغير

لسطح الأرض (٧) · لقد كان لآراء هارتشورن الجغرافية مدى كبير في نفوس الكثير من الجغرافيين لدرجة أن بعضهم اعتبرها اكثر وجهات النظر قوة · ولكن ظهر بعد ذلك دعاة نظرية المواقع theory of Locations الذين انتقدوا آراء هارتشورن بشدة وتشاءموا من استخدامه بعض التعابير مثل فريد unique والاختلاف المكاني areal differentiation ووصف الموقعيون هؤلاء وجهة النظر التقليدية هذه بأنها « استثنائية » وخرجوا بنمط فكري جديد كان أهم أسسه بناء النظريات والنماذج والأنظمة والتحليل الكمي والوصول الى القوانين التي تعتبر هي أساس البحث العلمي النهائي وهدفه ·

نمط الفكر الجغرافي التقليدي :

الفكر الموضوعي والفكر الاقليمي : الجغرافية علم مكاني · فالأرض geo هي مجالها والأمكنة هي نظرتها · والمعرفة الجغرافية هي معرفة شاملة مرتبة للظاهرات المشاهدة على الأرض باعتبارها موطن الحياة · وهذه الناحية المكانية للظاهرات أو جهة النظر الشمولية للأمكنة يمكن فهمها من زاوية الزمن · فلكي نفهم الحاضر يقوم الماضي بدور المفتاح ، وبمساعدة الماضي والحاضر يمكن الاشارة الى المستقبل · وعليه يمكن ترتيب المجال الجغرافي على أساس المادة والمكان والزمان · فعلى أساس المادة تبرز الجغرافية الموضوعية (المنهجية أو النظامية أو الأصولية كما ترد في بعض الكتابات) systematic geography وتكون النواحي المكانية من أهم سماتها · وعلى أساس المكان والنظرة الشاملة لأجزاء من سطح الأرض تبرز الجغرافية الاقليمية regional geography أما على أساس الزمان فيتم التركيز على أساس المادة والمكان من خلال الزمان ومن خلال أي مرحلة معينة أو نقطة معينة من الزمان · وهنا تبرز الجغرافية التاريخية historical geography

والسؤال الذي يرد هنا هو ما المقصود بتعبير الجغرافية الموضوعية كضد للجغرافية الاقليمية

Systematic geography versus regional geography ?

انه منذ أمد طويل والجغرافية تعاني من مثل تلك الازدواجية التي يطلق عليها « الثنائية في الجغرافية » dualism in geography · وأمثلة ذلك كثيرة حيث نجد تعابير مثل موضوعية ضد اقليمية وطبيعية ضد بشرية وساكنة ضد متطورة وحتمية ضد امكانية ووصفية ضد كمية او تعليمية

وغير ذلك . والواقع يجب أن لا نعتبر هذه التعابير متناقضة تماما . اذ أنها تعكس في الغالب وجهات نظر سادت خلال فترات معينة من تاريخ تطور علم الجغرافية . ويؤيد ذلك القول بأن الثنائية في الجغرافية ظهرت بصورة واضحة نتيجة لتطور العلوم وزيادة المعلومات الجغرافية المتعلقة بالانسان والأرض (٨) .

ربما كان أكثر الثنائيات قدما واستعمالا حتى في الكتابات غير العربية هو التضاد بين الجغرافية العامة general geography والجغرافية الاقليمية regional geography وذلك قبل ظهور كلمة systematic لتعني المنهج الموضوعي في الجغرافية . وقد أخذت الجغرافية العامة لتعني ذلك الفرع الذي يختص بدراسة العالم ككل وبدراسة الظاهرات التي تؤثر على العالم بأكمله . أما الجغرافية الاقليمية فأخذت لتعني الدراسة الجغرافية لمناطق أو أقاليم معينة من سطح الأرض ، وهي عادة اما دراسات خاصة بالمعنى المفهوم من « اقليم خاص » أو دراسات أعم تهدف الى جمع الأقاليم المتشابهة تحت اقليم واحد . وقد تبع ذلك في القرن التاسع عشر انشطار الجغرافية الى جغرافية طبيعية physical geography وجغرافية بشرية human geography والجغرافية الطبيعية هي الدراسة الجغرافية لظاهرات سطح الأرض التي يطلق عليها اسم طبيعية . وبمعناها الضيق هي الدراسة الجغرافية للظاهرات غير الحية على سطح الأرض ولذلك فهي تتضمن دراسة الصخور والتربة والتضاريس والجيومورفولوجيا والبحار والمحيطات والغلاف الجوي ، وأحيانا العلاقات بين الناس والبيئة الطبيعية . أما الجغرافية البشرية فهي الدراسة الجغرافية لتلك الأشياء أو الظاهرات من سطح الأرض التي ترتبط مباشرة بالانسان أو تعزى اليه أو الى نشاطه (٩) . ويرى يسري الجوهري بأن هذا التقسيم كان نتيجة للتخصص الدقيق الذي صاحب التقدم العلمي ابان العصر الحديث . وهو يضيف أن التطرف في هذا التخصص كان من نتيجته أن فقدت الجغرافية وحدتها (١٠) . فلنعد قليلا الى الوراء لنرى كيف تطور مثل هذا التقسيم .

لقد أكد فارينيوس Varenius في كتابه Geographia Generalis عام ١٦٥٠ على الحاجة لتنظيم المعرفة الجغرافية . اذ افترض تقسيما بين الجغرافية العامة general أو العالمية universal وبين الجغرافية الخاصة special أو المعينة particular (١١) . ولقد عرف

فارينوس الجغرافية العامة بأنها تلك التي تدرس سطح الأرض بشكل عام ويدخل ضمن ذلك جميع مظاهر سطح الأرض التي يكون لها قوانين عالمية . أما الجغرافية الخاصة فهي التي تبحث في الأقطار والأماكن المنفردة التي اكتسبت شخصيتها من التفاعل البشري مع الطبيعة . والذي يبدو واضحا أن فارينيوس يقترح بأن الجغرافية العامة تهتم بالقضايا الفيزيائية التي يمكن شرحها بالقوانين في حين أن الجغرافية الخاصة تبقى على الأغلب وصفية طالما أنها تشمل دراسة الانسان الذي لا يمكن التنبؤ بأحواله . وحتى كانت Kant وهمبولت Humboldt فقد استخدما كلمتي طبيعي وعام ليعنيا نفس الأمر تقريبا .

ومع المزيد من نمو علم الجغرافية استخدم العديد من الاصطلاحات بقصد التفريق بين الجغرافية العامة والجغرافية الخاصة . فدخلت كلمة موضوعية systematic (التي استعارت مدلولها من العلوم الموضوعية) بدلا من general كما تم استخدام كلمة regional بدلا من special ان هذه الثنائية بين ما هو موضوعي في منهجه وما هو اقليمي لا تقسم الجغرافية الى قسمين اثنين كما قد يظن البعض ، ولكنها تعكس تضادا في منهاج الدراسة (١٢) . بل ان بعض الجغرافيين يعتبرون ذلك مجرد اختلاف في المقياس (١٣) . والحقيقة فان وجهات النظر المختلفة هذه ليست سوى أوجه عديدة لموضوع ينظر اليه من زوايا مختلفة ، وحسب هذه الزوايا تبرز سمات معينة . فالجغرافية الموضوعية تدرس عنصرا واحدا في وقت واحد على سطح الأرض بمجموعه وهي تستطيع تحليل العوامل المؤثرة على العنصر المدروس ، وبذلك فهي قادرة على انشاء قوانين عامة . أما الجغرافية الاقليمية فكان من ميزاتها أنها تدرس جزءا معينا من سطح الأرض بتفصيل اكبر وانها تعني بالعلاقات بين جميع الظاهرات الموجودة في منطقة ما . ويمكن القول بأن الجغرافية الموضوعية بمفهومها المتطرف هي دراسة ظاهرة واحدة في وقت واحد على مقياس يشمل العالم بأجمعه ، بينما تكون الجغرافية الاقليمية معنية بجميع الظاهرات في منطقة معينة محددة . وبين هذين النقيضين يمكن أن يوجد عدد لا حصر له من المجموعات المختلفة على أساس عدد الظاهرات وحجم المناطق المدروسة في آن واحد . ولقد اكد العديد من الجغرافيين التناقض بين المنهجين الموضوعي والاقليمي . فبيري Berry مثلا يعتبرهما طرفين متناقضين للسلسلة الجغرافية (١٤) .

وتجدر الاشارة الى أن الجغرافية الموضوعية تدرس الظاهرات في جميع

أنحاء العالم وتستخلص استنتاجات ثم تقترح القوانين Laws وعليه فهي تعليلية nomothetic وهذا الذي يجعل بعض أبحاث الجغرافية الموضوعية تكون فيها الأفكار العلمية كثيرة لدرجة قد يخيل للبعض أنها ليست جغرافية ، وابحاث علم المناخ والجيومورفولوجيا أمثلة جيدة على ذلك · أما الجغرافية الاقليمية ـ فيغلب عليها الطابع الاخباري وبالتالي فهي لا تصوغ القوانين وتوصف بأنها وصفية idiographic وفي هذا المجال يعتبر شيفر Shaefer الجغرافية الاقليمية الجانب التطبيقي لعلم الجغرافية الذي هو في أساسه علم النظريات (١٥) · أما بنجي Bunge فيستخدم الجغرافية الاقليمية للبحث عن الأقاليم الشاملة generic regions بينما ينسب الى الجغرافية الموضوعية حالة نظرية محضة ، حيث يؤكد أن الجغرافية الاقليمية تصنف المواقع بينما تتمكن الجغرافية النظرية theoretical geography من تنبؤ هذه المواقع (١٦) · أما فريمان Freeman فيرى بأن الدراسات الموضوعية في الجغرافية تتشابك مع الدراسات الاقليمية · فكتابات ريتر مثلا وان كانت في أصلها دراسات اقليمية ، الا أنها تدين بالكثير من أهميتها الى المفاهيم الموضوعية التي انطلقت منها · واتجاهات همبولت وان كانت في أصلها موضوعية تستمد الكثير من قوتها من أساسها الاقليمي · وعليه يعتقد فريمان بأنه من المؤسف أن يعمد بعض الجغرافيين المتأخرين الى الايحاء بأن هنالك نوعا من التمايز بين ما هو اقليمي وما هو موضوعي (١٧) · وهنا يمكن أن نضيف بأن كلمتي اقليمي وموضوعي تستعملان أحياناً بمعاني نسبية · دعنا نفكر بجغرافية كاملة لجميع الموضوعات على سطح الأرض · أليست هذه النظرة اقليمية من وجهة النظر الفلكية ؟ ان كان الجواب بالايجاب عندها يكون ليس من الخطأ القول بأنه يمكن تنظيم الجغرافية الموضوعية على أساس اقليمي ، كما يمكن كتابة الجغرافية الاقليمية بأسلوب وطريقة موضوعيتين ·

العوامل البشرية وغير البشرية : تتداخل الظاهرات على سطح الأرض في طرق متنوعة · ويمكن ترتيب هذه الظاهرات حسب العديد من التصنيفات الخاصة بالعلوم ذات المنهج العام · فمن بين هذه التصنيفات نجد مثلا التصنيف الى بشري وغير بشري أو الى ساكن ومتحرك أو مرئي وغير مرئي · والحقيقة فاننا لا نستطيع أن نقول بأن هنالك تصنيفا أكثر أهمية من تصنيف آخر · وان قيل مثل ذلك فيكون عائدا الى أسباب معينة · وأما في

الجغرافية فيعزى تقسيم جميع العناصر لمجموعتين بشرية وغير بشرية الى المفهوم الفلسفي المعروف بالحتمية البيئية environmental determinism وهي الفلسفة الجغرافية التي تؤمن بسيادة الطبيعة على الانسان ، والتي تفسر بتباين الظاهرات البشرية بتباين البيئات الطبيعية . ويعترف هارتشورن بأنه خلال فترة ما من تاريخ علم الجغرافية كانت الجغرافية متأثرة بالفكر الحتمي وأنه في تلك الفترة كانت مهمة الجغرافي هي البحث عن العلاقة بين العوامل البشرية والعوامل غير البشرية (١٨) . ليس ذلك فقط بل ان أتباع هذه المدرسة قد ذهب بعيدا الى درجة القول بأن « التاريخ لو أعاد نفسه فان الانسان سيمر بنفس أطوار التقدم بلا شك » (١٩) .

ويتضاد مع مدرسة الحتمية البيئية مدرسة تسمى بالاحتمالية probabilism أو الامكانية possibilism وتسمية المدرسة الامكانية هذه مشتقة من كتاب المؤرخ ليفيبر Lefebre (٢٠) . وهذه المدرسة تؤمن بحرية الانسان في الاختيار . فالبيئة لا تحتوي على حتميات وانما على امكانيات واحتمالات والانسان حر في أن يختار مايلائمه من هذه الامكانيات . وعليه فهذه المدرسة تؤكد استجابة الانسان لظروف البيئة وليس خضوعه لها (٢١) .

يقودنا الحديث عن العوامل البشرية وغير البشرية في الجغرافيا الى الحديث من الثنائية التي تفرق بين ما هو طبيعي وما هو بشري . تلك الفكرة التي انتقدت بشدة لتجاهلها بأن ظاهرات الأرض ليست طبيعية محضة ولا بشرية محضة وانما مخلوطة من هذه وتلك . صحيح أن هنالك ظاهرات طبيعية النشأة غير أن الانسان أدخل عليها تعديلات مختلفة كزراعة التربة مثلا ، ومن ثم فالظاهرات المادية بشطريها الطبيعي والبشري هي عناصر الوحدة الجغرافية التي يجب أن لايهمل عنصر من عناصرها (٢٢) والواقع فانه فقط في بداية القرن الحالي بدأ الانسان بالتحرر من الدائرة الفيزيائية أو الطبيعية . وأما في الماضي فقد سادت على المشهد « الصورة الفيزيائية » أو مايمكن تسميته الجغرافية المحضة pure geography

ولقد كانت جذور تلك الصور عميقة لدرجة أنه حتى اليوم يطلق أحيانا تعبير جغرافي geographical ليعني فيزيائي أو طبيعي . وأنه بسبب وجهات نظر ريتر وراتزل التي تفسر كل شيء بالخبرات الانسانية ظهرت العناصر البشرية الى الساحة الجغرافية . واليوم يتفق الجغرافيون على أن علمهم علم مركب بحيث أن بعض الظاهرات المدروسة قد حددتها الطبيعة بدون تدخل في حين أن ظاهرات أخرى حددها الانسان الذي يعمل مع الطبيعة جنبا الى جنب (٢٣) .

هنالك من الكتاب من يفضل استعمال كلمة طبيعية natural على كلمة فيزيائية physical وذلك ليفرقوا بوضوح بين الجزء البشري والجزء غير البشري لدى دراسة الجغرافية . فتعبير « الطبيعية » محصور بالعالم غير العضوي فقط ، وهنا تكون العناصر الحيوية مستبعدة . وعليه يمكننا أن نتحدث عن التقسيم الثلاثي في الجغرافية بين : طبيعي وحيوي وبشري .

وفيما يتعلق بالظاهرات الطبيعية على سطح الأرض فقد وجدت قبل ظهور الانسان ، كما أن عملياتها لازالت مستمرة . والجغرافية الطبيعية منظمة ومرتبة بشكل أفضل من شقيقتها الجغرافية البشرية مثلا . وهي بدورها تنقسم الى ثلاثة أقسام متعلقة باليابس والهواء والمحيطات . ويعرف جزء الجغرافية الطبيعية المعني باليابس باسم علم شكل الأرض أو جيومورفولوجيا geomorphology والواقع فان هذا الاسم كان قد اقترحه بعض العلماء الذين تربوا في محيط البيئة الحتمية لأن التضاريس اعتبرت دائما أكثر الأمور الطبيعية سهولة في التمييز . أما العلم الذي يعني بدراسة الهواء أو بعبارة أخرى دراسة الجو فهو علم المناخ . وعلاقة علم المناخ مع علم الأرصاد الجوية تشبه الى حد كبير العلاقة بين الجيومورفولوجيا والجيولوجيا (٢٤) . ولكن لا الجيومورفولوجيا ولا علم المناخ هما موضوعان جغرافيان تماما . بل هنالك جزء جغرافي في كل علم . والواقع فانه بسبب عدم وجود أي اصطلاح أكثر ملاءمة ليدل على ذلك الجزء من الجغرافية الذي يهتم بالجو نجد موافقة على الاسم الدارج وهو علم المناخ . واما المحيطات فهي كثيرة العناصر لدرجة أنه من الحق اعتبارها موضوعا قائما بذاته . اذ أن للمحيطات جغرافية متسعة جدا في عناصرها الطبيعية والحيوية شأنها شأن أراضي اليابس (٢٥) .

والجانب الحيوي في الجغرافية هو أيضا جدير بالاعتبار . ومن الواضح أن تمييز الجغرافية الحيوية biogeography عن الجغرافية الطبيعية قد يقود للاعتقاد بضرورة شمول الجغرافية الحيوية في الجغرافية البشرية . ولكن في الاستعمالات الدارجة يتضح أنها معنية فقط بجغرافية النبات والحيوان . وهنالك بعض التحفظ حول مضمون الجزء الحيوي bio في الجغرافية . فاذا ضمناه في الجغرافية الطبيعية فالجغرافية الحيوية يجب أن تدرس فقط النباتات البرية والحيوانات البرية . أما العالم النباتي المزروع والحيوانات

الأليفة فلها كل المؤهلات لأن تدخل ضمن اطار الجغرافية البشرية بمعناها الواسع ·

أما الجغرافية البشرية human geography فهي بمعناها الضيق دراسة الانسان والانسان فقط · وهنا تشكل المعاصر التي تدرس عادة في الديموغرافيا والاثنولوجيا والانثروبولوجيا وعلم الاجتماع أهم محتويات دراسة الانسان هذه · وأما في معناها الواسع · فجميع الظاهرات المعنية بالانسان وكافة نشاطاته تندرج تحت عنوان الجغرافية البشرية · والواقع لما كانت العلوم الاجتماعية نظيرا للعلوم الطبيعية ولما كان تعبير العلوم البشرية الأكثر ملاءمة غير دارج ، لذلك اقترح بعض الجغرافيين السالفين التركيز على استعمال الجغرافية الاجتماعية بدلا من الجغرافية البشرية · ولكن مثل هذا الاقتراح لا يستند على قاعدة صلبة ، اذ أن كلمة بشرية من الناحية الاتيمولوجية أعم من كلمة اجتماعية · ويرى بعض الجغرافيين بأن الجغرافية البشرية بمعناها الواسع تشمل الجغرافية التاريخية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، علما أن هنالك اتجاه بالمقابل يدعو الى قصر استعمال الجغرافية البشرية على جغرافية السكان وجغرافية العمران المديني والريفي معتبرا الفروع الأخرى فروعا قائمة بذاتها (٢٦) · ولكن رغم كل هذه الروح التخصصية يبقى الجغرافيون متفقين على وحدة الجغرافية كحقل ويستمر التكامل التام بين عناصر الجغرافية البشرية وغير البشرية · فالانسان والطبيعة لهما علاقات متبادلة حيث وجد الانسان على الأرض ·

نمط الفكر الجغرافي الحديث :

ظهر في السنين الأخيرة كثير من الجغرافيين يدعون الى المزيد من الجغرافية العلمية والى المزيد من النظريات في الجغرافية · ففي العصر الحالي الذي تميز بالتعمق في المعرفة شعر الجغرافيون بضرورة نقل الجغرافية من أفكارها التاريخية القديمة كي يبنوا على صرحها جغرافية حديثة على أسس حديثة · وحتى ديفز Davis فقد نادى في مطلع هذا القرن بفكرة بناء النظريات في الجغرافية اذ قال بأنه « يمكن الوصول الى ميناء الشرح والتعليل فقط عن طريق اجتياز بحر النظرية » (٢٧) · واليوم نفس النغمة نقرؤها في كتابات بيري Berry وجاريسون Garrison وهاجيت Hagget وبنجي Bunge وهيجرستراند Haggerstrand وغيرهم . فبيري مثلا يعتقد بأن الجغرافيين يتميزون عن غيرهم ليس بالظاهرات

التي يدرسونها فقط بل وأيضا بالمفاهيم والعمليات processes التي يركزون عليها (٢٨) ·

وانه لأمر واضح أن معظم الجغرافيين الحديثين والمعاصرين متحمسون لأن تكون الجغرافية علم المواقع يركز على عامل الموقع Location تركيزا كبيرا · فنجد أن هاجيت على سبيل المثال يوضح أن الاهتمام بالموقع والتوزيع هو سمة الكتابات الجغرافية (٢٩) · ومما لا شك فيه فان لمدرسة المواقع هذه بذورا في الفكر الجغرافي التقليدي الذي اعتبر الجغرافية علم توزيع وأن هذه المدرسة عبارة عن تحسين ضروري لذلك الفكر · وتعتبر العلاقة بين الموقع والتوزيع علاقة قوية · اذ أنه اذا كان لظاهرة ما موقعين او اكثر تبرز اهمية التوزيع distribution وأما العملية process فهي الطريقة التي وجدت بحسبها الظاهرة في موقعها · أما المسافة فهي المدى بين موقعين ، في حين أن العلاقة بين موقعين هي التفاعل interaction الذي يحتاج بدوره الى مسافة من خلال الحركة الدورانية circulation أو الحركات · والأنماط المكانية spatial patterns تكون دائما ذات أشكال هندسية بأشكال مختلفة وحجوم مختلفة · ولذلك بين بنجي بأن الهندسة والحركات يمتزجان في الفة واحدة · وهما مع بعضهما يشكلان الأنظمة المكانية أو العلاقات ، وهما بذلك يلخصان فحوى الجغرافية الحديثة ·

بالاضافة الى ذلك ، هنالك نزعة جديدة في الجغرافية الحديثة تتمثل في التركيز على الأساليب الكمية · وقد أطلق على هذه النزعة اسم « الثورة الكمية » (٣١) أو الجغرافية الكمية quantitative geography وهذه الجغرافية ليست فرعا جديدا من فروع الجغرافية وانما هي منهج من مناهجها وأسلوب من أساليبها المتنوعة يعتمد عليه الجغرافيون في أبحاثهم وتحليلهم،وهي بهذا تعتبر نقيضا لماكان يطلق عليه بالجغرافية الوصفية (٣٢). ويعتقد ابو عياش بأن التحليل الكمي أصبح سمة العصر في الأبحاث العلمية الحديثة وأن الالمام بكيفية استخدام الآلات الحاسبة الالكترونية ضروري لكل البحوث بمافيها الجغرافية · اذ بها يمكن ان توصف الجغرافية بأنها علمية ومعاصرة (٣٣) ·

والتصور البيئي environmental perception أيضا من المواضيع التي

يركز عليها في جغرافية اليوم · اذ أن وجهة النظر الجغرافية هي في حد ذاتها مكانية · كما يهتم الجغرافيون حاليا بالتنبؤ prediction فامبروز Ambrose مثلا يؤكد بأن تحليل العملية والتنبؤ أمران مترابطان ببعضهما بعدة وجوه ولعدة أسباب · اذ أن دراسة أية عملية ديناميكية مستمرة لا تستطيع اهمال المستقبل (٣٤) · والواقع فان مفهوم التنبؤ ربما كان من أهم ما يميز جغرافيتنا الحديثة عن مثيلتها في الماضي ، وهو الأساس الهام لبناء النماذج models الجغرافية ·

لقد خرج هاجيت بأفكار هامة لتنظيم نماذج المواقع في الجغرافية البشرية وذلك في كتابه (٣٥) ·
Locational Analysis in Human Geography
واستخدم هاجيت في تحليله عناصر خمسة هي : الحركة movement والشبكات networks والعقد nodes والتسلسل الهرمي hierarchies والسطوح surfaces وهذه العناصر مع اضافات أخرى متعلقة بالأهداف والبيانات والزمن والمقياس كان قد استخدمها بيري (٣٦) تشكل القاعدة الصلبة لذلك الجزء الجغرافي المهتم ببناء النظريات · والواقع فان النماذج والنظريات كلها أمور مرتبطة ببعضها متداخلة في عملية البحث الجغرافي · ولكن النظرية أوسع وأشمل من النموذج « وتغطي موضوعا بكامله ، بينما النموذج يعتبر جزءا من هذا الكل ويستخدم كمقدمة للوصول الى الفرضيات Hypotheses والنظريات أو اختبارها ومعرفة مدى صلاحيتها » (٣٧) · والجغرافية النظرية theoretical geography مدينة للجغرافي بنجي Bunge «٣٨) في كثير من مفاهيمها ، تلك المفاهيم التي تعتبر ممثلا هاما للجغرافية الموقعية الحديثة · ويرى بنجي أن الجغرافية هي علم المواقع ، ذلك العلم الذي يكون له ذراعان أحدهما تنبؤي (نظري) والآخر تصنيفي (اقليمي) · أما الجغرافية التصنيفية فهي وصفية محضة تجيب على السؤال ? what is where في حين تكون الجغرافية النظرية تعليلية تجيب على السؤال ? why the where ولها قوة تنبؤية · وفي الجغرافية النظرية يضع بنجي معظم الجغرافية الموضوعية الحالية · أما الجغر فية الحالية فيغطيها كل ما لها في الوقت الحاضر بالاضافة الى النواحي التصنيفية من الجغرافية الموضوعية التقليدية ·

يتفق الجغرافيون عموما مع بنجي بأن الجغرافية في الوقت الحاضر تهتم

بالاجابة على السؤال لماذا ، ولكنهم يضيفون الى جانب ذلك الأسئلة أين ومتى وماذا وكيف · فمثلا آبلر Abler وأدمز Adams وجولد Gould يوضحون بأن الجغرافيين لم يعودوا يرون أساس حقلهم هو وصف التنظيم المكاني للعالم ، بل شرح الحقائق وبتبيان أنها أمثلة لقوانين ونظريات عامة (٣٩) · وهنا تجدر الاشارة بأن بنجي قد أخطأ في دمج الجغرافية الموضوعية مع الجغرافية النظرية ، وأن ذلك يعتبر أمرا مشوشا للفكر الجغرافي · فالجغرافية الموضوعية لها سمتها المميزة المستقلة وهي تقوم بدور الاغناء للجغرافية النظرية ·

ومهما يكن من أمر فالجغرافية الحديثة تيارها جارف · ولا يحمل لواؤها فقط هؤلاء الذين تخرجوا من جامعات تركز عليها ، بل وأيضا الجغرافيون التقليديون الذين يرغبون اللحاق بالركب · ولكن تبقى الحقيقة أن كل اتجاه من الاتجاهات السالفة له من يدافع عنه · وتختلف هذه الاتجاهات باختلاف أفكار ووجهات نظر صاحبيها · والواقع فان مقارنة وجهات النظر تنير فعلا الطريق أمام فهم جغرافي أفضل · ثم ان الأفكار بمجموعها تكون الوسيلة الى الغاية · لقد أوضح هاجيت أن كثيرا من مشاكلنا ينتج من فشلنا باقرار أن الجغرافية ذات طبيعة متعددة الأبعاد multidimentional (٤٠) · ثم ان المجالات الجغرافية متكاملة · فكما أن أقسام التاريخ أو الاجتماع مرتبط بعضها بالبعض الآخر ، فكذلك الجغرافية · وعليه تكون فروع الجغرافية وأنظمتها المختلفة مكملة لبعضها سواء ما كان منها تاريخيا أم اجتماعيا أم اقتصاديا أم طبيعيا أم سياسيا أم بشريا · فهذه كلها عبارة عن سلسلة متماسكة الحلقات ، وأفكارها المتطورة هي التي تجعل من الجغرافية علما ديناميكيا ·

الهـــوامش

١ ـ يسري الجوهري : الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية (الاسكندرية : منشـــأة المعارف ، ١٩٧٢) صفحة ٢١ .

2. Hartshorne, R. : The Nature of Geography (Lancaster, Penn. : Association of American Geographers, 1939 and later editions) p. 140.

٣ ـ روجر منشل : تطور الجغرافية الحديثة . ترجمة محمد السيد غلاب ودولت احمد صادق (القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، الطبعة الأولى ١٩٧٣) الصفحات ٤١ ـ ٤٢ .

٤ ـ محمد عبد الرحمن الشرنوبي : البحث الجغرافي (القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٧) صفحة ٩ .

٥ ـ المرجع السابق ـ صفحة ١٠ .

٦ ـ المرجع السابق ، صفحة ١١ .

7. Hartshorne, R. : Perspective on the Nature of Geography (London : John Murray, 1963) p. 21.

٨ ـ يسري الجوهري ، المرجع رقم ١ . صفحة ٣٦٧ .

٩ ـ يوسف توني : معجم المصطلحات الجغرافية (دار الفكر العربي ١٩٦٤) الصفحات ١٥٣ ـ ١٥٨ .

١٠ ـ يسري الجوهري ، المرجع رقم ١ ، صفحة ٣٦٨ .

١١ ـ روجر منشل ، المرجع رقم ٣ ، صفحة ٥٢ .

12. Hartshorne, R. : op. cit., fn. 7, p. 108.

13. Wooldridge, S. W. and East, W. G. : The Spirit and Purpose of Geography (London, 1967) p. 32.

14. Berry, B.J.L. : "Approaches of Regional Analysis : A Synthesis", Annals of the Association of American Geographers, Vol. 54, 1964, pp. 5 - 6.

15. Shaefer, F. K. : "Exceptionalism in Geography, A Methodological Explanation", Annals of the Association of American Geographers, Vol. 43, 1953, p. 230.

16. Bunge, W.: Appendix to Theoretical Geography (Lund: Lund Studies in Geography, 1966) p. 213.

١٧ ـ ت فريمان : قرن من التطور الجغرافي ، ترجمة شاكر خصباك (بغداد : منشورات جامعة بغداد ، ١٩٧٦) صفحة ٤٩ .

18. Hartshorne, R. : op. cit., fn. 7, p. 64.

١٩ ـ ج. موغي : المدخل في دراسة الجغرافيا ، تعريب شاكر خصباك (الدار القومية للطباعة والنشر ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٤) صفة ١٧ .

٢٠ ـ دولت صادق وعلى البنا ونبيل امبابي : أسس الجغرافيا العامة (القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٦) صفحة ١١ .

٢١ ـ يوسف توني ، المرجع رقم ٩ ، صفحة ٢٠ .
٢٢ ـ يسري الجوهري ، المرجع رقم ١ ، صفحة ٣٦٨ .

23. Hartshorne, R. : op. cit., fn. 7, p. 66.

24. Wooldridge, S. W. and East, W. G., op., cit., fn. 14, p. 43.

25. James, P.E. and Jones C.F. (eds.): American Geography: Inventory and Prospect (Syracuse : Syracuse University Press, 1954) p. 411.

٢٦ ـ دولت صادق وعلي البنا ونبيل امبابي ، المرجع رقم ٢١ ، صفحة ١٢ ـ ١٣ .

27. Davis, W.M. : Geographical Essays, edited by D. W. Johnson (Dover Publications, 1954) p. 84.

28. Berry, B. J. L. : op. cit., fn 15, p. 2.

29. Hagget, p. : Locational Analysis in Human Geography (London : Arnold, 1965) p. 13.

30. Bunge, W. : op. cit., fn. 16, p. 250.

31. Burton, I.: "The Quantitative Revolution and Theoretical Geography ", The Canadian Geographer, Vol. 7, 1963, pp. 151 - 162.

٣٢ ـ محمد علي الفرا : مناهج البحث في الجغرافيا بالوسائل الكمية (الكويت : وكالة المطبوعات ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٥) صفحة ١٦٤ .

٣٣ ـ عبد الاله أبو عياش : الاحصاء والكمبيوتر في معالجة البيانات مع تطبيقات جغرافية (الكويت : وكالة المطبوعات) ، صفحة ١٧ .

34. Ambrose, p. (ed.) : Analytical Human Geography (Longmans, 1969) pp. 12 - 13.

35. Hagget, p. : op. cit., fn. 29.

36. Berry, B. J. L. and Marble, D. F. (eds.) : Spatial Analysis - A Reader in Statistical Geography (Englewood Cliffs, N.J. : Prentice - Hall, 1968).

٣٧ ـ محمد علي الفرا ، المرجع رقم ٣٢ ، صفحة ٢٤٨ .

38. Bunge, W. : op. cit., fn. 16, p. 236.

39. Abler, R., Adams, J. and Gould, p.: Spatial Organization (Englewood Cliffs, N.J. : Prentice - Hall, 1971) p. 87.

40. Chorely. R. J. and Hagget. P. (eds.) : Frontiers in Geographical Teaching (London : Methuen, 1970) p. 378.

المصادر

اولا ـ المصادر العربية :

١ ـ عبد الاله أبو عياش : الاحصاء والكمبيوتر في معالجة البيانات مع تطبيقات جغرافية (الكويت : وكالة المطبوعات ، بدون تاريخ) .

٢ ـ يوسف توني : معجم المصطلحات الجغرافية (دار الفكر العربي ١٩٦٤) .

٣ ـ يسري الجـوهري : الفـكر الجغرافي والكشـوف الجغرافية (الاسكندرية : منشأة المعارف ، ١٩٧٢) .

٤ ـ محمد عبد الرحمن الشرنوبي : البحث الجغرافي (القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٧) .

٥ ـ دولت صادق وعلي البنا ونبيل امبابي : أسس الجغرافية العامة (القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٦) .

٦ ـ محمد علي الفرا : مناهج البحث في الجغرافيا بالوسائل الكمية (الكويت : وكالة المطبوعات ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٥) .

٧ ـ ت. فريمان : قرن من التطور الجغرافي ، ترجمة شاكر خصباك (بغداد : منشورات جامعة بغداد ، ١٩٧٦) .

٨ ـ روجر منشل : تطور الجغرافية الحديثة . ترجمة محمد السيد غلاب ودولت أحمد صادق (القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٣) .

٩ ـ ج. موغي : المدخل في دراسة الجغرافيا ، تعريب شاكر خصباك (الدار القومية للطباعة والنشر ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٤) .

ثانيا ـ المصادر الأجنبية :

1. Abler, R. Adams, J. and Gould, P. : Spatial Organization (Englewood Cliffs, N.J. : Prentice - Hall, 1971).

2. Ambrose, p. (ed.) : Analytical Human Geography (Longmans, 1969).

3. Berry, B. J. L. : "Approaches of Regional Analysis : A Synthesis", Annals of the Association of American Geographers, Vol. 54, 1964.

4. Berry, B. J. L. and Marble, D. F. (eds.) : Spatial Analysis - A Reader in Statistical Geography (Englewood Cliffs, N.J. : Prentice - Hall, 1968).

5. Bunge, W. : Appendix to Theoretical Geography (Lund: Lund Studies in Geography, 1966).

6. Burton, I.: "The Quantitative Revolution and Theoretical Geography", The Canadian Geographer, Vol. 7, 1963.

7. Chorely, R. J. and Hagget, P. (eds.) : Frontiers in Geographical Teaching (London : Methuen, 1970).

8. Davis, W. M. : Geographical Essays edited by D. W. Johnson (Dover Publications, 1954).

9. Hagget, p. : Locational Analysis in Human Geography (London : Arnold, 1965).

10. Hartshorne, R. : The Nature of Geography (Lancaster, Penn. : Association of American Geographers, 1939 and later editions).

11. Hartshorne, R. : Perspective on the Nature of Georgraphy (London : John Murray, 1963).

12. James, P. E. and Jones, C. F. (eds) : American Geography : Inventory and Prospect (Syracuse University Press, 1954).

13. Shaefer, F.K. : "Exceptionalism in Geography, A Methodological Explanation", Annals of the Association of American Geographers, Vol. 43, 1953.

14. Wooldridge, S. W. and East, W. G. : The Spirit and Purpose of Geography (London, 1967.).